اسم الدرس : سورة الملك | الجزء الرابع

تصنيف الدرس : من برنامج آيات تُتلى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– أهلًا بكم في الحلقة الرابعة والأخيرة من وقفات مع سورة المُلك ضمن برنامج "آيات تُتلى"، أسأل الله –عزّ وجلّ– أن يجعلنا وإيّاكم جميعًا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

تكلمنا في المرة السابقة عن أهم سُؤالين في السورة كما ذكرنا، وأهم سؤالين من وجهة نظري، خصوصًا أن جميعنا نمر بهذه القضايا: قضية الأمن وقضية الرزق، وكيف سألت السورة سؤالين "أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم" الملك:20، من الذي ينصركم؟ "أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ" الملك:21، من يَملُك لكم النّصر والأمن؟ ومن يَملُك لكم الرزق؟ وتوقّفنا هنا.

سيل الإجابات بعد سيل الأسئلة

قلنا في البداية منذ أول حلقة أن السورة مليئة بالأسئلة، فتُراجع مراجعة عقدية قبل النوم كي تنام على الفطرة، وبعد ذلك قلنا إن هناك سؤالًا مهمًا جدًا وهو "أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا" الملك:22، تركناه وهو ما سنبدأ به–إن شاء الله– اليوم، وبعد هذا السؤال "أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"الملك:22،بدأت الإجابات مُنطلقة قُلْ، قُلْ، قُلْ، ست مرات "قُل"متتالية، تتخللها آية واحدة فقط "وَيَقُولُونَ" الملك:25، أي قُل قُل، هم سيقولون شيئًا واحدًا، أما أنت فتستمر في قُل, كأنهم لم يقولوا شيئًا، تستمر مباشرةً في توجيه الخطابات المباشرة ...وبعد سيل الأسئلة هناك سيل الإجابات.

الشخصية المُعاندة والشخصية المُقبلة المؤمنة

كأن السورة عبارة عن مجموعة من التساؤلات التي تواجه القلب والعقل والبصر في الاتجاه الصحيح، فإن أعرض كما سبق أن قلنا أن السورة فيها جو من العناد والحرب والرفض "لَجُّوا فِي

عُتُوٍّ وَنُفُورٍ" الملك:21،والغرور، مجموع هذه الألفاظ في السورة يعرّفك الشخصية التي تخاطبها السورة: الشخصية المُعاندة أو الشخصية المُقبلة المؤمنة التي اختارت أن تكون في صف أهل الحق.

يقول ربنا –سبحانه وتعالى– بعد قضية الأمن وقضية الرزق:"أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"هنا ضُرب مَثَل يقارن مابين اثنين، النموذج الأول الذي يمشي مُكبًا على وجهه هو مَن عنده إجابات خاطئة للأسئلة في السورة، وخاصة في قضية الأمن والرزق، ولأجل هذا أعقبها مباشرة هذا المثل ،فمن عنده غَبَش في التصورات سيكون كما المُكب على وجهه –والعياذ بالله–،أما من يرى الأشياء على حقيقتها ويبصر الإجابات الحقيقية التي جاءت في هذه السورة هو الذي يمشي سويًّا على صراط مستقيم وهو النموذج الثاني.

المشهد الأول: الذي يمشي مُكبًا على وجهه

نبدأ أولًا بالذي يمشي مُكبًا على وجهه:

أولًا: أتى الفِعلان بصيغة "يمشي" بصيغة المضارع، أي كما يقابل المؤمن عقبات ويستمر في الطريق،فالكافر أيضًا يجد عقبات ويستمر في العناد –والعياذ بالله– كما قال تعالى "إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ" النساء:104.قلنا هنا الكافر، المُصر، المُعاند...كما جاءت صيغة المضارع في "هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ"الملك:3، هنا صيغة (من يمشي) يبحث عن خلل ويريد أن يحارب هذا الدِّين "أَفَمَن يَمْشِي مكبا"، بالرغم من كل العذاب النفسي الذي يلاقيه، يُصادم الكون، فالكون كله مُلك لله –سبحانه وتعالى– وبالرغم من هذا فإنه يصر أن يمشي، ومن يصر على أن يصادم الكون ويكون مشركًا أو كافرًا–والعياذ بالله– ويمشي ضد الكون ماذا سيحدث له؟ سيكون" مُكبًا على وجهه".

فوائد النظر إلى السماء

"مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ" قالوا: هذا المثل فيه أكثر من إشكالية لهذا الشخص.. 1-إشكالية في وجهة رأسه... أنه لا ينظر إلى السماء،بل ينظر إلى الأرض ولأنه ينظر إلى الأرض فمُكبٌ على وجهه، وقيل: إنه أعمى، معنى "مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ" أنه أعمى، وقالوا: مقارنة بين أعمى وبصير، 2- والإشكال الثاني في الطريق الذي اختار أن يمشي فيه.

فالأمر الأول: أنه ينظر إلى الأرض وهذه إشكالية، النّبي -صلَّى الله عليه وسلم- كان إذا رأى شيئًا يعجبه يقول:"اللَّهُمَّ لا عَيشَ إلا عَيشُ الآخِرَة"[1] ،النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان كثيرًا ما ينظر إلى السماء.

وللشيخ الطريفي بحث رائع في مسألة نظر النبي -صلَّى الله عليه وسلم- إلى السماء، كان في تفسير آيات الأحكام صوتيًا والآن مُفرَّغ في التفسير والبيان للشيخ الطريفي، في المجلد الأول عند قوله -سبحانه وتعالى-:"قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ" البقرة:144،عقد مبحثًا رائعًا في السنة ((كثرة نظر النبي -صلَّى الله عليه وسلم- إلى السماء))،وذكر الفوائد التي يستفيدها الإنسان من النظر إلى السماء في مسألة المهابة، والإقبال، والإخبات لله -سبحانه وتعالى-.

عقائد لابد أن تستقر في قلوبنا

الشيطان يريدك أن تتعلق بالأرض، يريدك عبدًا للدينار والدرهم، تتمسك بالأرض، فهذا شخص ينظر إلى الأرض، يبحث عن آلهة تجلب له الرزق، عن آلهة تجلب له الأمن، ينظر إلى الأرض متعلقًا بفتن الدنيا وبأسبابها وشهواتها، أماالمؤمن فينظر إلى السماء متعلقًا بالله، يعلم أن الله- عز وجل- يملك له الرزق، ويملك له الأمن، يعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تضره بشيء لن تضره إلا

[1] صحيح البخاري

بشيء قد كتبه الله عليه، فالمُكِب على وجهه ينظر إلى الأرض وهو أعمى، لا يرى الأشياء على حقيقتها، هو يرى الآلهة، سواء الآلهة الأصنام أو الآلهة البشرية، يرى أنها تجلب له النفع، وتجلب له الرزق.

النبي –صلَّى الله عليه وسلم– يقول:"يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ"[2] ،"تجده أمامك"[3]،"واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء"[4] عقائد تترسخ في قلب غلام يكبُر بها وتكبُر معه، هذه العقائد لابد أن تستقر في قلوبنا، الأعمى عن هذه العقائد هو الذي يمشي مُكبًا على وجهه.

طريق الكفر مليئة بالمشاكل لأنها تصادم الكون

إذَا فالإشكال في طريقة النظر أو إشكال في البصر أصلًا، وكذلك إشكال في الطريق، لقد اختار طريقًا وعِرةً.ما أقوله ليس سوى مجموعة من كلام المفسرين، وبالطبع الأفضل والأنفع أن يرجع من عنده قدرة، أو عنده أي مقدمات في العلوم الشرعية، أو اللغوية، خاصةً في علمي النحو والبلاغة، فيستمتع بكلام المفسرين في شرح هذا المثل، سواء كلام ابن كثير، أو الطبري، أو ابن عطية، أو الزمخشري، خاصةً من عنده ضبط في العقائد، ويستطيع أن يقرأ في بعض التفاسير التي بها بعض الأخطاء العقائدية، سينبهر كيف حللوا هذا المثل كلمة كلمة، نحن نحاول فقط ذكر تجميعة مما قالوه، "يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ" قالوا طالما يمشي مُكبًا على وجهه، فالإشكال في الطريق، طريق وعر طريق مليء بالحفر، وهذا هو طريق الكفر، مليء بالمشاكل النفسية؛ لأنه يصادم الكون، والكون كله يطيع الله –سبحانه وتعالى–.

---

[2] صححه الألباني

[3]"ردفتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخلف يدَه ورائي فقال : يا غلامُ ألا أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعُك اللهُ بهنَّ ؟ احفَظِ اللهَ يحفَظْك ، احفَظِ اللهَ تجِدْه أمامك"حسنه ابن حجر العسقلاني.

[4]".. واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإن اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ." صححه الألباني.

يُحشر الكافر يوم القيامة سيرًا على وجهه

بعض المفسرين قالوا: هذا مشهد للكافر في الدنيا، بعضهم قال: هذا مشهد للكافر في الآخرة، و"مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ" معناه مُكب على وجهه حقيقة، أي يمشي على وجهه حقيقةً، كيف هذا؟ كما رُويَ عن النبي –صلَّى الله عليه وسلم– أن الله كما أنه بقدرته –سبحانه وتعالى– جعل الناس يسيرون على أقدامهم في الدنيا، يجعلهم يسيرون على وجوههم[5]–والعياذ بالله– يوم القيامة، فقالوا هذا الكافر الذي كان مُكبًا على وجهه في الدنيا، يأتي يوم القيامة يسير على وجهه، مشهد بشع، مشهد مؤلم، إنسان يسير على وجهه! لِمْ؟ لأنه كان هكذا يفعل في الدنيا، لا يرفع رأسه إلى السماء، فهكذا يحشر في الآخرة –والعياذ بالله– يحشر على وجهه.

المشهد الثاني: الذي يمشي سويًّا على صراط مستقيم

المشهد الثاني: مشهد مختلف تمامًا، الإنسان المستقيم السوي المُبصر الذي ينظر إلى السماء، يرى الأشياء على حقيقتها، فـ"يَمْشِي" أيضًا بصيغة المضارع والطريق الذي يمشي عليه، يمشي على طريق مستقيم، "على صراطٍ مستقيم" لذلك هنا العلماء قالوا كيف عرفنا أن الأول يمشي في طريق وعر؟؟ قالوا من شيئين:

[5] "أن رجلًا قال : يا نبيَّ اللهِ ، كيف يُحْشَرُ الكافرُ على وجهِه يومَ القيامةِ ؟! قال : أليسَ الذي أَمْشَاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يُمْشِيَه على وجهِه يومَ القيامةِ . قال قتادةُ : بلى وعزةِ ربِّنا" صحيح البخاري.

– أنه(مُكب على وجهه) بصيغة المضارع يمشي مُكبًا كأنه لا يقوم أبدًا، مثل رجل يمشي فيقع و كلما قام وقع على وجهه، فالطريق مليء بالحفر.

– الشيء الثاني الذي عرف به المفسرون: أن المثل الآخر ذكر الصراطَ المستقيم، وكأن الطريق الأول لا يستحق أصلًا أن يُسمى طريقًا، عندما يكون شخص يسير في طريق ممهد، وهناك أشياء جانبية–ليس طريق جانبي –،إنما طوب وصخر ورمال على الجانب، هذا لا يُسمى طريقًا، فعندما يترك الإنسان هذا الطريق الممهد المستقيم ويسير بين الأشياء الجانبية، هذا لا يستحق أصلًا أن يُسمَّى طريقا، هذه ظلمات بعضها فوق بعض.

التشبيهات الشديدة في القرآن للمُعرِض عن الطريق المستقيم

تشبيهات القرآن للمُعرِض عن الوحي، والمُعرِض عن دين الله، تشبيهات رائعة مرعبة، فهي رائعة في التصوير...مثل: الظمآن الذي يبحث عن السراب الذي في سورة النور، الحيران الذي في سورة الأنعام، الكلب الذي يلهث في سورة الأعراف، الذي يسقُط في أسفل السافلين الذي في سورة التين، الذي يمشي مُكبًا على وجهه في سورة المُلك، الذي يَخِر من السماء في سورة الحج، تشبيهات رائعة مفزعة مرعبة، تُبَشِّع لك المشهد، أن تختار هذا الطريق أو الذي لا يستحق أن يُسمى طريقًا أصلا، "أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ".

الذي لا يستعمل النّعم في طاعة الله كأنه فاقدها

"قُلْ" أنا أخبركم "قُلْ هُوَ"–سبحانه وتعالى– "الَّذِي أَنشَأَكُمْ"،أنت نَشْء مُنشأة، أنت مليء بالآيات بداخلك؛ لكن الإنسان لا يتفكر في نفسه "هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ"الملك:23،لكن قلّما تستعملون هذه النعم في طاعته "قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ"الملك:23، كأن الأصل أن هذه النعم تُستعمل في إبصار الآيات، لذلك من له قلب، وسمع، وعقل، وبصر، ولا يستعملها في الطاعة كأنه فقدها،

كما قال ربنا"لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا" الأعراف:179، لماذا؟ هو كان ذكيا جدًا في الدنيا لكنه لم يستعمل هذه النعم في طاعة الله فكأنه عطّلها –والعياذ بالله– "قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ".

"قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ" الملك:24، البث والنشر والذَّرْء في كل العالم ...ثم بعدما ذرأكم في الأرض، "وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" الملك:24، سترجعون له مرة أخرى.

أسلوب القرآن في الرد على منكري البعث

بعد أن قلت لهم كل الآيات وقلت له كل هذه الأقوال قل ...قل، ماذا قالوا ؟ "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" الملك:25،مازال في صيغة المضارع ويقولون!!! مازال يمشي مُكبًا على وجهه! مازال مُصمما على العناد! مازال مُصمما أن يسير في هذا الطريق!

"وَيَقُولُونَ" استهزاءً "مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" "قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ"الملك:26، القرآن له أسلوب رد عجيب جدًا، القرآن يتعامل مع مُنكِر البعث، لا يرد عليه كثيرا، يأتي له بالمشهد الذي يُنكِره ويُدخله فيه، كأنك الآن موجود داخل المشهد، انظر المشهد... مشهد ناس منكرة،"وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"، الآية تقول له: أنا لا أعرف "قل إنما الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ"، ثم فجأة الآية التالية... الآن جاء هذا الوعد "فَلَمَّا رَأَوْهُ" الملك:27، بصيغة الماضي، تخيل!، مازال بصيغة المضارع يسأل، يستهزئ، متى البعث!!!فإذا به أمامه بصيغة الماضي!

لذلك الذي يعايش القرآن لابد أن يتأثر، لكن المشكلة في الإعراض عن المعايشة "فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً"الملك:27، يزدلف أي يقترب منك، "فَلَمَّا رَأَوْهُ"، كأن أسد يحاول أن يقترب و يفترسه؛ يوم القيامة يقترب والعذاب يقترب "فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً"، يعني قريبًا "سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا" الملك:27، هذه الوجوه التي كانت تضحك وكانت تُنكر البعث وتستهزئ، الآن "سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا" وقيل لهم– التبكيت–مثل قوله تعالى "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ"؟! أيضًا التبكيت في آخر السورة "هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ"الملك:27، هذا الذي كنتم به تستعجلون وتستهزئُون وتتمنون... أوتدَّعون بمعنى تكذبون ،هذا الذي كنتم بسببه تُكذبون الوحي...أي بسبب البعث "هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ".

الله وحده هو الذي يكشف العذاب الدنيوي والأخروي

في نهاية السورة ثلاث آيات متتالية، قل، قل، قل، الآية قبل الأخيرة آية 28 والآية 30 فيهم سؤالين... الآية 28 "فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" ؟والآية 30 "فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ"؟الملك:30.

الآية الثامنة و العشرون تتكلم عن العذاب الأخروي، لو وقع عليكم العذاب الآخروي من سينقذكم... من الذي يستطيع إنقاذكم؟،

الآية الثلاثون عن العذاب الدنيوي لو أن الله –عز وجل– أزال نعمة منكم من يأتيكم بها؟ هذا هو الختام...

الآية 28 تذكروا العذاب الأخروي، الآية 30 تذكروا العذاب الدنيوي، وما بينها اختيارنا نحن المؤمنون»»»"قُلْ هُوَ (الرَّحْمَنُ)"الذي تكلمنا عنه طوال هذه السورة سبحانه وتعالى "هُوَ الرَّحْمَنُ (آمَنَّا)" الملك:29، نحن اخترنا هذا الطريق.

ليس شرطًا أن يُعذَّب الكافر في الدنيا

إذًا ختام رائع...ثلاث آيات؛ الأولى: تذكير بالعذاب الأخروي؛ لأن هذا الأصل عند كل النّاس الكفار؛فليس لازما أن كل كافر يجد عذابا دنيويا،قد يكون كافرا ظاهرا أمامنا و لا يحدث له أي مكروه ويموت ميتة عادية جدًا ثم يُعَذَّب يوم القيامة –والعياذ بالله–، ليس شرطا أن يذوق كل كافر العذاب الدنيوي، فجاءت الآية الأولى–الثامنة و العشرون–ختامها"فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ"، الآية ثلاثون ماذا لو أن الله –عزّ وجلّ– أزال عنكم نعمة الماء من يأتيكم بها (العذاب الدنيوي)وبينهما اختيارنا نحن المؤمنون .

تعالوا نقرأهم سويا "قُلْ أَرَأَيْتُمْ"، ختام السورة نحن قلنا الآية تخاطب الكافر المُعاند الرافض للآيات بالرغم من وضوحها، إنسان "لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ"، مجموعة لجت لذلك جاءت أفواج في السورة "أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ"،"لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ"هناك غرور، هناك استهزاء، "ويقولون متى هذا الوعد" كل هذا الإعراض نخاطبه في النهاية .

تمني الكفار موت النبي –صلَّى الله عليه وسلم- وأصحابه–رضي الله عنهم-

"قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا"الملك:28،

قيل في سبب نزول هذه الآية

أنهم كانوا يتمنون موت النبي –صلَّى الله عليه وسلم– والصحابة،

لا يريدون أن يسمعوا الإنذار،

لا يريدون أي نذير،

فالنبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– يقول لهم إذا أنا مت "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ"،أنا والصحابة متنا "أَوْ رَحِمَنَا"،لذلك الآية هنا فيها ثلاثة أقوال أو أكثر من قول، أذكر لكم سريعا : قيل فيها: أنتم تتعجلون عذابي ؛ نفترض أن الله أهلكني في الدنيا أو أهلكني في الآخرة، أو رحمني في

الدنيا، أو رحمني في الآخرة، أنا أتكلم عنكم... من يُجيركم أنتم؟، أنت تتمنى موت سبب هدايتك! أنت تتمنى موت من يريد أن يأخذ بحُجَزِكمُ عن النار! فإذا أنا مِت،فمن الذي سيأخذ بحُجَزِك عن النار؟! من الذي سيدُلك على طريق الحق؟!

رد النبي –صلَّى الله عليه وسلَّم- على الكفار

أحيانًا تذهب فتتكلم مع أحدهم في أن يترك معصية مثلًا فتجده في ضجر منك، ويريدك أن تغادر، حسنًا إذا أنا ذهبت،إذا أنا تركتك... ماذا ستفعل أنت وماذا سيحل بك؟ أنا سئ... من يكلمك هو السئ، لكن أنت أنت"فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" ؟!!

لذلك النبي –صلَّى الله عليه وسلم– يقول لهم سواء أهلكني الله في الدنيا، أو رحمني، أو تخيلوا– وهذا القول موجود جميل جدا– تخيلوا أن ربنا أهلكنا بسبب ذنوبنا ونحن مؤمنين فماذا عنكم وأنتم كفار؟... إذا كنّا نحن مؤمنين ولدينا بعضًا من الذنوب فربّنا أهلكنا وأدخَّلنا النار–الإهلاك يمكن أن يأتي بمعنى العذاب الأخروي– أو رحمنا، فماذا عن كفركم؟!!"فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ"؟، لذلك جاء بالوصف ولم يأتي بضمير المخاطب. فالسؤال:"فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" أي إذا كان الإيمان الذي فيه معاصي أمر مشوب بين الخوف والرجاء فماذا عن الكفر!!!

إذا كان المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء فما بال الكافر ؟

لذلك يروي البعض هنا في هذه الآية والآية التي سبقتها ، ذكر أكثر من مفسّر عن بعض الزُهاد أنه كان يقرأ في هذه الآية حتى الفجر، لذلك الزمخشري قال: "ولعمري هذه الآية –لمن يعيش هذه الآية– "إنها لوقّاظة" وقّاظة أي الخروف الذي يضرب بالعصا ضربا مبرحا، بمعني أن هاتين الآيتين بمثابة إفاقة، فإذا كان المؤمن المذنب ما بين خوف ورجاء... يخاف وهو مؤمن أصلًا ومطيع! ومع ذلك يخاف من عذاب الله، ماذا عنكم أنتم "فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" ؟

يوم القيامة سيظهر الحق واضحًا

نأتي الآن إلي اختيارنا نحن كمؤمنون ، أنتم معرضون، أنتم معاندون، أنتم تُسرون بينكم الحرب على الدين، أنتم تصرون على الاستهزاء، أنتم تتمنون موتنا، أنتم تخططون لأجل قتالنا، أو لأجل إهلاكنا؛"قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّابِهِ" الملك:29، هذا هو الجهر بالعقيدة، "هو الرحمن"، ذكرنا في السورة ورد أكثر من مرة اسم الرّحمن "هُوَ الرَّحْمَنُ" نحن آمنا بالرّحمن، يجب أن يؤمن الإنسان بما يتكلم، لذلك كان في أول السورة " لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا"الملك:2، وليس قولًا، فالقول يجب أن ينتج عملًا..."قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ" لكنهم يخوفوننا، هم يهدّدوننا، الكفار يمكن لهم أن يفعلوا بنا أي شئ!، "وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا" "قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ"الملك:29، ألستم تقولون أننا ضُلَّال؟ سنري يوم القيامة ماذا سيحدث "فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ"الملك:29، كما في سورة سبأ "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" سبأ:24،سنري من منا على الحق يوم القيامة "فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ".

الحوار بين مؤمن يدعو إلى الله وكافر مُعاند

وآخر ما سأقوله لكم قبل أن أترككم "قُلْ أَرَأَيْتُمْ"،أريدك أن تتخيل الحوار بين مؤمن يدعو إلى الله وكافر مُعاند، آخر شئ سيقوله المؤمن للكافر"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ"،كأنك تصبح في الصباح "إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ"، الماء الذي تملكونه هذا يصبح "غَوْرًا"، أي لن تستطيعوا أن تصلوا إليه {تحوُّل عافيتك وفُجَاءة نقمتك}[6] –والعياذ بالله–! تخيل أنه من الممكن فجأة حصول زلزال، فجأة بركان يثور ، رياح عاصفة، فجأة"إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ"، نعيم ظاهر فمن الذي يملك أن يأتيك بالنعمة بعد زوالها؟!!

---

[6] كانَ مِن دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِن زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ.

الراوي : عبدالله بن عمر | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم

الصفحة أو الرقم | 2739 :خلاصة حكم المحدث] : صحيح

الله -عزَّ وجلَّ- قادر على كل شيء فلا تغتر بالأسباب

لذلك ذكر الزمخشري قصة عجيبة بعض الشئ: أن أحدا من الناس قال استهزاءً لمَّا سمع هذه الآية قال: "تأتي بها الفؤوس والمعاول"، أي إذا غارت المياه معنا من الأسباب ما يأتينا بالماء، أحدهم لما سمع الآية قال ذلك استهزاءً فأذهب الله –عز وجل– ماء عينيه وأصبح أعمى!، وبالمناسبة من الممكن ألا يحدث مكروه لمن يستهزِئ، والعذاب يكون له يوم القيامة. وهذا يدل علي أنه أحيانًا يحدث اغترار بالأسباب كما قال ربّنا: "إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ"الملك:20، فيسمع أحدهم الآية "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا"، فيقول نحن سنصَنع الماء!، ويغفل أن الله يمكنه أن يأخذ عقلك، يدك، مصانعك، أموالك، الله قادر على كل شيء، فالذي يغتر بالسبب، الله–عزّ وجلّ– قادر على أن يُهلكه و أن يُهلك السبب "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ" القصص:81، فالإنسان لا يغتر، الله قادر على كل شيء؛ لأن المُلك مُلكه–سبحانه وتعالى–.

خاتمة

اقرأ السورة مرة أخري ستجد أن السورة تكلمك عن المَلِك، مملكة المَلِك، عظمة المَلِك، قُدرة المَلِك، جنود المَلِك، نهاية المُعرضين عن أوامر المَلِك، ثم عن أهل الإيمان الذين اختاروا طوعًا أن يكونوا ضمن جنود المَلِك –سبحانه وتعالى–، أسأل الله أن نكون منهم وأن يستعملنا في طاعته، وأن يستعملنا لنصرة دينه، ويجعلني وإيّاكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرا.